

المرأة العربية



منذ خمس وتسعين سنة وقف الطبيب الذكر بطرس البستاني على منبر الجمعية السورية والقى خطاباً موضوعه تعليم المرأة . وها قد قارب القرن ان يمر وحال المرأة العربية لا تزال كما كانت عندئذ إلا في بعض التفاصيل غير الجوهرية . تولد غير مرغوب فيها ، وتعيش غير مكرمة ، وتغوت غير مبكي عليها . لا يزال الجهل مخبأ على خبائها ، والحجاب مسدولاً على جمالها ، ونير الرجل مشدوداً على عنقها ، وعقليته الفاسدة متحكمة فيها ، والخطباء ينادون بتحريرها ، والله در من قال حامياً حرامياً !

هذه هي حال المرأة في الجاهلية وفي الاسلام وفي الجاهلية الحديثة : جاهلية القرن العشرين .

هذه هي حال المرأة العربية في الجاهلية وشاهدنا على ذلك القرآن الكريم : « واذا بُشِّرَ اِحدُهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به ايمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون . »

وهذه هي حال المرأة العربية في الاسلام ، وشاهدنا على ذلك

(١) سورة النحل : ٥٨

ابو بكر الحواري . خلف لنا الحواري هذا مجموعة رسائل كتبها الى اصدقائه ومعارفه في اواخر القرن العاشر للميلاد فجاءت مرآة للمجتمع العربي آنئذ . وهالك ما قال في واحدة منها كتبها الى رئيس بهراة يعزبه بابن اخته وبنته . فبعد ان سكب الدموع مدراراً على الصبي وتلوع عليه نثراً وشعراً قال :

« اما البنت فرحمها الله تعالى رحمة تلحقها بريم وآسية في الاولين ، وبخديجة وفاطمة في الآخرين ، وبام الدرداء ورابعة في نساء الصحابة رحمة الله عليهم (لا عليهن) اجمعين . ولولا ما ذكرته من سترها لكنت الى التهنئة اقرب مني الى التعزية ، فان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمات . ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة ، واذا زف كريمته الى القبر ، فقد بلغ امنيته في الصهر ! » . قال احدهم : ولم ار نعمة شملت كريماً كنعمة عورة ستوت بقبر وقال الثاني :

تهوى حياتي واهوى موتها ابدأ والموت اكرم نزال على الحرم وقال ثالث :

وددت بنيتي ووددت اني وضعت بنيتي في احد قبر وقال الرابع :

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات ولم يكتف صاحبنا بما سبق بل كتب ثانية الى صديق يعزبه عن ابنة له فقال :

« واذا كان لا بد من عين تصيب طرفاً من اطراف الكمال ،

ولا بد من عودة يعوذ بها وجه الجمال ، فلأن تكون الواقعة في الصغير خير من ان تكون في الكبير ، ولأن يقع سهم الزمان على النسوان ، امثل من ان يقع على الذكران . فالحمد لله الذي جعل في طبي المحنة منحة ، ومزج بالفرحة فرحة .

وهذه هي حال المرأة العربية في الجاهلية الحديثة ، جاهلية القرن العشرين . وشاهدنا على ذلك شهادة العيان : انا ابوليلي ولا ابدل ليلي بالف صبي . قطعت ليلي المحيط الاتلنتيكي في اثناء الحرب على متن باخرة في قافلة حربية . وقد هيات لها الحكومة الاميركية جميع وسائل الراحة مع انها لم تتجاوز السبعة من الشهور سنأ ، واجتازت المغرب الاقصى في طائرة سلكت طريقاً خاصة حتى لا ينال اذنيها الصغيرتين اذى من طبقات الجو العليا . ولما وصلت ليلي الى مسقط رأس والدها ، وتوافد الاقرباء والاصدقاء والمعارف للسلام عليه وعلى شريكة حياته الاميركية ، تناولوا القهوة المعتادة . وبعد كل فنجان كانت ترتفع اصواتهم لا بالتهاني على سلامة الوصول بل بالتعازي . نعم بالتعازي ، لاننا لم نسمع سوى نغم واحد ولحن واحد تردد حتى بلغت النفس التراق . فمن صوت اجش يقول « بفرحة عريس ! » ، وآخر كحجر الرحي يطحن فينبعث عنه « ليجبر الله خاطرك بعريس ! » ، وآخر كالبيغاء « ان شاء الله ان يزينا بعريس ! » . والحق يقال ما كانت ليلي يوماً بحاجة الى زينة ، فهي زينة والدها وزينة البيت انى كان ، على الرغم من القول المأثور : كل يغني على ليله .

والشيء بالشيء يذكر ، فان الاقوال المأثورة المتداولة هي اجلى

مرآة لعقلية الشعب وثقافته . وما الثقافة الا ما يعمله الفرد والجماعات
فطرة بدون تعمد . فها بعض ما تشتمل عليه ثقافتنا وبظهر من
خلاله مركز المرأة في مجتمعنا : البنية بلية ، دور البنات خرابات ،
البنات غلبات ، تكبر حية ولا تجيب بنية ، موت البنات سترة ،
هم البنات للمهات ، موت البنات من المكرمات ، النسوان إلهم
نص العقل ، بس بنت ، مثل المرا ، اجل شانك مرا ، اجل
قدرك مرا !

واذا اضطر الرجل ان يذكر امرأته في الحديث ، فهي بنت
عمه لا زوجته او شريكة حياته . فهو لا يشاركها راضياً الا التعب
والتعساء .

هذا هو حال المرأة العربية اذاً في الادوار الثلاثة من ادوار
بيثتنا . دور الجاهلية ودور الاسلام ودور الجاهلية الحديثة . ومن
العدل ان اقول ان هذه البيئة قد انجبت في ادوارها الثلاثة نساء
كريمات يفاخر بهن في كل قطر من اقطار العالم ، كالحنساء وخديجة
واسماء ذات النطاقين وميسون ورابعة العدوية والباعونية وعائشة
التيمورية ومي وصفية زغلول ام المصريين وغيرهن عديدات . وقد
وصلنا ذكر لامرأة عربية مارست مهنة الطب هي زينب طييبة بني
أود . ولم تصلنا اخبارها على الارجح الا لما في ذلك من الشذوذ .
موضوعي اليوم تحرير المرأة ، وهو موضوع مبتذل لا يزال
بطرقه الخطباء في بلادنا منذ قرن ونصف . ولا يزال خلافاً مثل المرأة
نفسها وغامضاً مثل خفايا قلبها . وعندي ان اول سؤال يجب ان
نسأله هو : بمن يجب ان تتحرر المرأة ومم ؟ وفي الاجابة على القسم

الاول منه جواب على الثاني .

يمن يجب ان تتحرر المرأة العربية؟ على المرأة العربية ان تتحرر من الرجل نفسه . فان جميع اتعابها وبلاياها وجهلها وتأخرها عن شقيقتها في الاقطار الاخرى يعود الى الرجل المتسلط عليها ، والى عقلية الرجل التي تحبط بها . فهو الذي يحسبها مقرأ للذائل ومصدراً للخداع ، ويرى انها لم تخلق الا لقضاء شهوته وخدمة لذته . وما هي الا دمية يتعلل بها متى شاء ، ويلقيها جانبا متى شاء ، ويحطمها متى شاء . ومن هو الذي يزجها في ظلمات البيت ، ويأبى ان ترى الشمس - شمس المعارف والعلوم - ويرفض ان تخرج الى المدرسة ، ويفرض عليها قوانين للعيش غير التي يتخذها لنفسه ، ويسدل على جماها حجاباً من الظلمة وعلى روحها سبعين حجاباً ؟

الرجل مصدر جهلها وسبب بقاءه . الرجل حافظ سجنها ، وعقليته الفاسدة قيدها ، واهواؤه الشهوانية نيرها ، ولن تخرج المرأة من سجنها ولن تحل قيدها ، ولن تكسر نيرها ، ولن تقفي على جهلها الا بخروجها على الرجل ، الا بالثورة ضد استبداده ! وانا ادعو المرأة الى الثورة ، إلى الثورة الفكرية ضد عقلية الرجل . وعقلية الرجل من المرأة كالنير الاجنبي من الشعب ، لا افلات منه الا بالثورة . فقد يستطيع الشعب المستقل مثلاً ان يعالج قضايا ومشاكله بالتطور والتدريج ، اما النير الاجنبي فلا يخلع الا بالثورة . وقد تستطيع المرأة المتحررة ان تعالج أمورها بالتطور والتدريج ، أما المستعبدة اذا شاءت ان تتحرر فعليها ان تلتجئ الى العنف ، وان تخلع نير الرجل عن عنقها خلعاً .

ان حرية المرأة كحرية الشعب ، لا تأتي ولن تأتي هبة من المستعبدين ، بل تنتزع انتزاعاً . وقد اصبح بيناً بيان الشمس في رابعة النهار ان المفاوضات مهما تكن محكمة ، عقيدة في اصلها ، لن تنجلي عن جلاء ، جلاء الجنود او جلاء الرجال . فلتنتزع المرأة العربية عنها لباس الرضوخ ، ولتنتفض غبار الطاعة ، لتحرر نفسها بنفسها ، ولتنتزع من قبضة الرجل استقلالها وحريتها !

ولا بد لكل حركة تحريرية من رمز او شعار او كلمة تتكهرب منها النفوس . وكما اصبح الحجاب رمزاً لتأخر المرأة العربية ، فليكن السفور رمزاً لتحريرها . أقول هذا لاني احسب الحجاب السبب في تأخر المرأة ، فالحجاب في حد ذاته لا يقدم ولا يؤخر ، وكم من امرأة سافرة أشد تأخراً واعظم عبودية من شقيقته المتحجبة . غير ان الحجاب اصبح على مر الايام رمزاً لكل ما تنوء تحته المرأة من جهل وضعف واضطهاد واستبداد . وانتزاع الرمز لا يتعدى الخطوة الاولى في طريق الانقلاب . وهو سبيل في طبيعته ، ويتلوه من الواجبات الايجابية كثير . فالاستعاضة عن العلم المثلث الالوان مثلاً بالارزة الشاحنة فوق الثلوج البيضاء تجري من حولها دماء الشهداء . الحمراء ترمز الى انقضاء دور وبدء آخر . اما النبعات التي تقع على عاتق الشعب للسير في هذا الدور الجديد فهي عديدة ومستمرة . ولا بد من متابعتها اذا شئنا ان يكون للدور الجديد معنى او حقيقة .

فما هي الواجبات التي لا بد للمرأة العربية ان تتحملها بعد ان تعلن استقلالها وترفع من جمال وجهها رمزاً لحريتها ؟

قبل كل شيء ، على المرأة العربية ان تعين هدفها من حريتها ، ثم
 تقرر الوسائل التي يجب ان تتخذها للوصول الى ذلك الهدف . اما
 الهدف فهو المساواة لا اقل ولا اكثر ، حتى تصبح الزوجة شريكة
 لابنت عم ، والام مرشدة لا جارية ، والاخت شقيقة لا خادمة .
 يجب ان تتساوى المرأة مع الرجل في الحقوق والواجبات
 الاجتماعية والمدنية والسياسية . يجب ان تساهم معه في مشاريع البناء
 والعمران ، وان تتحمل معه تبعة ما تقوم به من الاعمال . يجب ان
 تقاسمه مسؤولية التهذيب والادارة ، وان تجلس الى جانبه على
 مائدة الحكم والنظام ، كما تجلس الى جانبه على مائدة الطعام .
 يجب ان تسير معه في معترك السياسة كما تسير معه في مجتمعات
 اللهو والمؤانسة . يجب ان نشاطره السراء والضراء وتقاسمه الافراح
 والاتراح . يجب ان تكون شريكة حياته من المهد الى اللحد .
 وعلى المرأة العربية حتى يتم لها هذا ان تتولى تربية اطفالها
 بنفسها ، فتزرع في قلوبهم وقار الام واحترام المرأة ومحبة الاخت
 وكرامة العائلة الصالحة . يجب ان تعلم اولادها معنى الاختلاط
 الاجتماعي الصحيح ، وان تكشف لهم عن حقيقة قلما ينسبها الرجال
 وهي ان المرأة مرآة للرجل . كل ما فيها من مساوىء ومحاسن
 وعيوب وجمال وشر وخير صادر عنه ومنبثق منه .
 لا اشاء هنا ان اعدد حقوق المرأة وواجباتها ، ففي تعداد
 الامور تقليل من اهميتها وتعطيل لها عن جوهرها . وجوهر الامر
 هنا المساواة والمشاركة باوسع معانيها . فتمت اصبحت المرأة شريكة
 للرجل تفتح امامها جميع الابواب المفتوحة امامه ولا يوصد منها الا

ما اوصد في وجهه .

واود ان احذر المرأة من امر قد تتعرض اليه في سيرها نحو هدفها هذا : هدف المساواة والمشاركة . عليها ان لاتفقد في سعيها الى هذه المساواة رونقها ولطفها وجمالها ودلالها . واذا غالت المرأة في طلب المساواة وفسرتها تفسيراً ضيقاً فانها تفقد اعظم مما تكسب : تفقد انوثتها .

ولتحذر من ان تنصرف عن الجوهر الى العرض والمظاهر الخارجية . فالخروج الى مقاصف الرقص مثلاً ، لا يضمن لها المساواة والمشاركة اذا لم تتغير عقلية الرجل ونظرته اليها . وكثيراً ما تكون المقاصف اشد خطراً على مركز المرأة وحريتها من مطبخها . ولا شيء يحفظ رجلها عن الزلق على ارضها الا ثبات خطواتها وحسن درايتها وحكمتها .

فلتطلب المرأة المساواة والمشاركة ولتحتفظ بلطفها وانوثتها . قال احد المدافعين عن حقوق المرأة خلال خطاب شديد الحماسة ان لا فرق بين الرجل والمرأة سوى انوثتها . فرد عليه احدهم من بين الصفوف : ليعش ذلك الفرق ! وانا ارجع قول هذا المجهول : ليعش ذلك الفرق !